

محي الدين النووي

والسلطان بيبرس

للدكتور عبد الوهاب عزام

كان شيخ الإسلام أبو زكريا محيي النووي من أعلام العلماء في القرن السابع الهجري ، ذا مكانة عالية بين علماء الفقه والحديث . وكان له في التقوى والورع والزهد سيرة محمودة ، وفي نصرته الحق وتأييده مواقف مشهودة . ولا بأس أن نثبت هنا بعض سجمات ابن السبكي : « كان محيي رحمه الله سيّداً وحسباً ، وليثاً على نفسه حصوراً ، وزاهداً لم يبال بخراب الدنيا إذا صير ربع دينه مهوراً . له الزهد والقناعة ، ومتابعة السالفين من أهل السنة والجماعة ، والمصابرة على أنواع الخير ، لا يصرف ساعة في غير طاعة . هذا مع التفنن في أصناف العلوم : مترون أحاديث ، وأسماء رجال ، ولغة وصرفاً ، إلى غير ذلك » . ولست أبني هنا ترجمة النووي ، ولكن أذكر واقعة كانت بينه وبين الظاهر بيبرس ، وهي واحدة لها أمثال في سيرة الشيخ ، ولها نظائر كثيرة في تاريخ الإسلام :

كان بيبرس ملكاً مجاهداً أبلى في قتال التتار والصليبيين بلاءً عظيماً ، وقد انتظمت شجاعته وعزمته مع شجاعة أسلافه وأخلافه من الأيوبيين والمماليك ، فكانت سرّاً من الجهاد والجلاد ، وفي البلاد المصرية مصائب الفزاة ، وخيب دونهما آمال الصليبيين مائتي سنة . وكذلك كانت همته وإقدامه هو وجنوده في مصر والشام ، كالطود ارتد عنه سيل التتار بعد أن جرف البلاد الإسلامية من سمرقند وخوارزم إلى حلب ودمشق ؛ فعملوا جنود هولاكو في « موقعة عين جالوت » وما بعدها أن مصر أبعد من أن يطعموا فيها ، وأن الشام أعزّ من أن يسيطروا عليه وكان بيبرس في جهاده المستمر ، وحره المهادية ، يتوسل إلى المال يستعين به على جهاده ، وكان الشيخ النووي يكتب إليه ناصحاً كلما رأى في عمل السلطان شدة ، أو جوراً ، أو مخالفة للشرع ، لا يني في هذا ولا يدهن ، ولا تأخذه رغبة ولا رهبة كتب مرة إلى السلطان هو وبعض العلماء ، يطلبون رفع بعض المكوس ، ويوصون بالعدل والشفقة ، فكان في الجواب إنكار وتوبيخ وتهديد ، فكتب الشيخ النووي يجادل فيما تضمنه جواب السلطان ويقول :

« وأما تهديد الرعية بسبب نصيحتنا ، وتهديد طائفة العلماء فليس هو المرجو من عدل السلطان وحلمه . وأي حيلة لضعفاء المسلمين في الناصحين نصيحة للسلطان ولهم ولا علم لهم به ؟ وكيف يؤخذون به لو كان فيه ما يلام عليه ؟ وأما أنا في نفسي فلا يضرني التهديد ولا أكثر منه ولا يمنعني ذلك من نصيحة السلطان ، فإني أعتقد أن هذا واجب على وعلى غيري . وما ترتب على الواجب فهو خير وزيادة عند الله تعالى . » إنما هذه الحياة الدنيا متاع وإن الآخرة هي دار القرار . » وأفوض أمري إلى الله إن الله بصير بالعباد . » وقد أمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن نقول الحق حينما كنا وألا نخاف في الله لومة لائم » ولما ذهب السلطان إلى الشام لمحاربة التتار أراد أن يأخذ مالاً من الرعية يستظهر به على العدو واستفتى العلماء فأفتوه . ثم سأل عن الشيخ النووي أن يشارك العلماء في الفتوى . فلما حضر الشيخ قال السلطان : اكتب خطك مع الفقهاء . فامتنع . قال السلطان : لماذا لا تكتب ؟ قال الشيخ :

« أنا أعرف أنك كنت في الرق للأمر بندقدار ، وليس لك مال . ثم من الله عليك وجعلك ملكاً . وسمعت أن عندك ألف مملوك كل مملوك له حياصة من ذهب ، وعندك مائتا جارية لكل جارية حق من الحلى . فإذا أنفقت ذلك كله وبقيت ممالكك بالبنود الصوف بدلاً من الخواص ، وبقيت الجوارى يتباهين دون الحلى أفنتك بأخذ المال من الرعية »

قال الظاهر للشيخ : أخرج من بلدي (بني دمشق)

قال الشيخ : السمع والطاعة . وخرج إلى نوى

فأنكر الفقهاء أن يخرج مثل النووي من المدينة ، وسألوا السلطان أن يرجعه . فأمر السلطان بإرجاعه . فأبى الشيخ وقال : لا أدخلها والظاهر بها

لست أدري أكان السلطان محققاً في فرض ما فرض من المال أم لا . ولست لذلك أعرف أكان الشيخ محققاً في مجابهة السلطان بما جابه به ، ولكن لا ريب عندي أن السلطان أحسن حين التمس فتوى العلماء قبل أن يجمع المال ، وأن الشيخ أدى واجبه حين صارع السلطان بما يمتد ، ولم يأخذه في الحق خوف ولا طمع ، وأن محيي الدين النووي قد فقه أحسن الفقه ما على العلماء من النصيحة لأولى الأمر ، والجهل بالحق في غير مدهانة ولا خوف . رحم الله النووي ؛ لقد كان من علماء المسلمين . والله تاريخ المسلمين كم فيه من أمثال محيي الدين !

عبد الوهاب عزام